الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ

عمالقة في التاريخ

سقراط

قلنا غير مرة أن العبقرية ليست وقفاً على شعب دون شعب ولا على طبقة دون طبقة من أبناء الشعب الواحد، كما أنها ليست حكراً لحضارة دون حضارة . لكن العبقرية ألوان وأنواع ... هي عملقة في الفكر ، كما هي عملقة في الفن والإدارة والقيادة العسكرية أو السياسية . أنها في كل ألوانها ومواطنها استثناء من القاعدة العامة ، ولكنها الإستثناء الذي لا تستقيم الحياة إلا به ولا يصنع التاريخ إلا في ظله.

يضاف إلى ما سبق أن العبقرية في جوهرها لا تنفصل في قدرتها ورؤاها عن القاعدة العامة ... ولو أنها انفصلت عنها لما استطاعت أن تلعب دورها في صنع التاريخ ولمضت مع الأيام مضي الأمس الدابر أو الظل العابر لا تحدث أثراً ولا تطلق ذكراً.

إنّ العبقرية التي تصنع التاريخ الأصيل المبدع هي التي تجد في الناس العاديين من حولها الإستجابة لأحلامها وأطماحها والقدرة على الارتفاع إلى المستوى الذي يتجاوب مع رغباتها. ولذلك فهي لا تكون عبقرية منتجة ما لم يكن المجتمع الذي ربيت فيه هو المترجم كما توحي به وتخطط له.

****

وقد يحدث أن تجد العبقرية في بيئتها الإجتماعية الصدى المطلوب للأحلام التي يحفل بها قلب صاحبها العبقري... لكنها في الوقت نفسه تواجه تيارات فكرية أو نظماً اجتماعية أو بيئة سياسية ترفض الفكر الذي يطرحه صاحبها أو النظام الإجتماعي الذي يقدمه أو اللون السياسي الذي ينادي به فلا تلبث عبقريته أن تواجه الصدمات العنيفة ، من تجاهل مقصود لها، أو نكران لأصالتها، أو قوة مادية تقف دونها وتحاول أن تطفىء النور الذي يصدر عنها.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

وإذا قضى سوء الحظ على صاحب هذه العبقرية أن يسقط فيفقد حياته تحت وطأة هذه الصدمات ، فإن هذا الحادث المأساوي لا يقلل من تأثيره، ولا يستطيع أني يخرجه من مسرح التاريخ. بل قد يكون العكس ، فإن سقوط صاحب العبقرية ضحية الرفض أو الاضطهاد لا يلبث أن يتحول إلى نبتة خضراء تغذيها مسيرة التاريخ في الناس والأشياء فتنمو النبتة لتصبح شتلة فتية ثم تمسي الشتلة بعد ذلك شجرة جذع يسبح في الأرض وأغصانها في السماء . وهكذا تصبح بظلها وأثمارها ضرورة لا يستغنى عنها من يجاورها من الناس والأشياء . وينسى الجميع الدور المخجل لأولئك الذين تجاهلوا العبقري أو تحاملوا عليه أو انتزعوا الروح من جسده، ويصبح طريد الأمس البطل الذي تهفو القلوب لذكراه، وتستعيد الذاكرة أيامه في ظل حب عظيم واحترام شديد وربما في وله غير عادي.

أما عملاقنا العبقري فقد وقع اختيارنا عليه بعد تصفية مكررة وعرض للعديد من أمثاله الذين ظهروا قبله أو بعده فوق تراب بلاده الوطني أو فوق غيره من شعوب اِلأرض.

هو سقراط الذي يقال أنه نقل الفكر الفلسفي من عالم الطبيعة الخارجي إلى عالم النفس الإنسانية. والذي يتفق مؤرخو الفكر الفلسفي عند اليونان قد استطاع أن يلعب دوراً كبيراً في تحرير الثقافة اليونانية من انتهازية السوفسطائيين الذين يستعينون بمهاراتهم العقلية لاقناع الناس بعدم وجود حق أو باطل خارج النفس الإنسانية ... فالحق عندهم هو الحق الذي يستجيب لرغبات صاحبه ... وقد يختلف كثيرون من الناس حول موضوع من الموضوعات فلا يتفق الواحد منهم مع الآخر وبذلك يصبح كل واحد منهم على حق لأنه يتفق مع مصالحه أو يستجيب لرغباته.

ثم يترتب على هذا أن تضيع حدود الحق والباطل . فلا يعود هناك حق يلجأ الناس إليه ويحكمونه فيما يشجر بينهم ... كما لا يعود هناك باطل يجعل الناس منه مقياساً لما يرفضونه من الأفكار والأعمال.

ففي نظر السوفسطائي : كل الناس على حق وكل الناس على باطل. هكذا تنبهم الحدود وتفسد الموازين ويصبح الحق مرتبطاً برغبة صاحبه وقدرته العقلية على اثبات حقه .

والواقع أن المؤرخين أو أن بعضهم قد شك في وجود سقراط أو أنكر وجوده انكاراً تاماً . وزعم أنه مجرد شخصية اخترعتها خيالات بعض الناس.

أما نحن فلا يعنينا أن يكون سقراط شخصية تاريخية قد وجد بلحمه ودمه ولكن الذي يعنينا الرؤية الفلسفية التي كانت له والتوجيهات والمواقف التي صدرت عنه بغض النظر عما إذا كانت هذه وتلك جزءاً من التاريخ كما هوالتاريخ في نظر مؤرخيه . أن تحولات فكرية فلسفية، وصور لنا مواقف نفسية وخلقية يمكن أن نجد فيها صورة معجبة مدهشة للرجل اليوناني خلال القرن الخامس قبل الميلاد. ويزيد في أهمية سقراط أنه لم تصوره الحكاية التاريخية على أنه من أسرة ممتازة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة أو المالكة بل هو من أسرة تنتمي إلى الطبقة الدنيا أو هي أقرب إليها.

كان أبوه حفاراً وكانت أمه قابلة . كما لم يكن حسن الوجه ولا جميل الطلعة بل كان ممقوت الشكل قبيح المنظر كما يقول الذين أرخو لحياته. لكنه كان في الوقت نفسه مستنير العقل كبير القلب محباً للخير لا يشغله من دنياه كلها غير شيء واحد هو البحث عن الحقيقة والسعي إلى معرفتها.

****

ولكن ما السبيل إلى هذه الحقيقة التي كان سقراط وغير سقراط يطمح إلى إستيعابها ؟

قلنا أن السوفسطائيين الذين يعاصرون سقراط كانوا لا يؤمنون بوجود حدود للحق والباطل ولا ينادون بقيم معينة تكون بمثابة المثل العليا التي يستضيء الناس بها . المصلحة الفردية هي وحدها ميزان الحق والباطل.

هؤلاء السوفسطائيون هم الذين وقف سقراط حياته الفكرية للرد عليهم واسكات صوتهم وفضح انحرافاتهم .

لكن سقراط لم يكن يجد أمامه فئات السوفسطائيين وحسب . فقد كانت حربه على السوفسطائيين تفرض عليه رفض كل التيارات الفلسفية التي ظهرت قبله أو عاصرته ... تلك التيارات التي كان أصحابها يبحثون عن الحقيقة في العالم الخارجي، عالم الطبيعة المادية والكون من حوله . فقد تعاقب قبل سقراط بأكثر من قرن واحد مفكرون كان يلتمسون الحقيقة فيما يحيط بهم من أشياء الطبيعة والكون ... أحدهم كان يعتبر الماء أصل الوجود كله وآخر يرى في الهواء هذا الأصل الذي يبحث عنه وثالث يرى أن النار هي المصدر الأساسي ورابع يعتقد أن خليطاً معيناً من الماء والهواء والتراب والنار هو الذي يصدر عنه كل شيء من أشياء الطبيعة والكون ... وجاء بعد هؤلاء من حاول أن يأخذ من كل بعض مذهبه الفلسفي ... إلا أن هذه المسيرة الحافلة بالمذاهب المتعارضة والمتباينة أو المتشابكة بقيت تبحث في العالم الخارجي عن الحقيقة اليتيمة . حتى إذا جاء سقراط أسقط المسيرة

كلها ورفض البحث عن الحقيقة في العالم الخارجي وأعلن قولته المشهورة : " اعرف نفسك ". فمن يعرف نفسه في نظره يمسك الخيط الذي يضع الحقيقة بين يديه.

****

لكننا هنا لا نقصد إلى عرض التفصيلات الكاملة لفلسفته التي عرفت لا في كتب دبجها قلمه بل في كتب تلاميذه ورجال المدارس الفكرية التي نشأت في ظل فلسفته.

والواقع أن سقراط كان يمثل الروح اليوناني الجديد الذي كان العصر يتخوض عنه. لكن المخاض كان عسيراً كما هو شأن كل مخاض في نظام الحياة والطبيعة والكون.

حاور السوفسطائيين وأسكتهم ... وحاور كل من كان يريد عقد الحديث معه ... وكان لا يصدر في حواره عن موقف المستبد برأيه المعارف مسبقاً بالحقيقة التي يجادل محاوريه حولها بل كان يتصرف كما لو أنه يريد مع محاوريه أن يصل إلى الحق المجهول منهم جميعاً .

****

وإذا كان سقراط ذا ميول وأفكار جديدة لا عهد لليونانيين بها في مدينة أثينا فإن هذه الأفكار وتلك الميول لم تحل دون إنصرافه إلى واجباته الوطنية. كل مواطن واع بمسؤولياته مستعد للتضحية خدمة لواجباته. فقد كان يشترك في الإنتخابات ، ويجلس في جماعة الشعب . ويروي أنه انتخب مرة في مجلس الشورى ورأس جماعة الشعب. ثم أنه كان يقوم بواجبه العسكري فاشترك في الحرب غير مرة وأبلى فيها البلاء الحسن وأظهر من الشجاعة ما كان يبوئه المكانة المرموقة بين مواطنيه . لكنه في الوقت نفسه لم يكف عن محاورة الشبان فهو يسعى إليهم إن لم يسعوا إليه. وقد كلف به الشبان وأحبوه. وحواره لم يكن يجري في مدرسة أو في ملعب أو في مبنى معين بل يجري في أي مكان ، في البيت والشارع والسوق. وكان يخالط حواره نوع من الدعابة بل ان الدعابة كانت وسيلته التي يبلغ بها عقول الناس من حوله. لكن الدعابة لم تكن مقصودة لذاتها بل كانت تشف عما وراءها من الحكمة والجد في الدرس يخالف بهما السوفسطائيين الذين لا يبغون من وراء محاوراتهم غير الفوز بالأمجاد وكسب المال . بل كانوا يضعون شروطاً معينة ويتفقون مع من يستمع إليهم على دفع رسوم مالية معينة تزيد وتنقص بزيادة عدد الدروس ونقصانها.

****

ومن الطبيعي أن يغضب سقراط أولئك السوفسطائيين وأن يدفعهم إلى مقاومته وأثاره العامة عليه. لكن النقمة على فلسفته لم تصدر عن العامة فقط بل ظهرت بعد ذلك في صفوف الطبقة الأرستقراطية .

ويروي أن الشاعر التمثيلي المشهور إستفان الذي كان يمثل الطبقة الأرستقراطية راح يعرض بسقراط في قصصه التمثيلية ويسخر منه كما في قصة الطير والضفادع ولا سيما في قصة السحاب التي خصصت كلها تقريباً للسخرية به.

هكذا أصبح سقراط انساناً خطراً في نظر الأرستقراطية الأثينية لأنه راح يعبث بما تعارف الناس عليه من العادات والتقاليد وبما توارثوه من الأخلاق.

وأصبح سقراط عدداً للجميع . وخطراً على كل الطبقات . فيهم الأرستقراطي والديمقراطي ولا سيما حين أخذ يعبث بالدين ويسخر بنظام الحكم القائم ويعارض محاكمة القواد الأثينيين المنتصرين في معركة أرحينوس بدعوى تقصيرهم في جمع الفرق من جنود تلك المعركة .

وبلغ السيل الربى حين لم يعد له صديق في عداد النافذين من أنصار الأرستقراطيين والديمقراطيين . حتى إذا استتب الحكم لجماعة الديمقراطيين وانتهى عهد الطغاة الثلاثين الذين كانوا يتولون الحكم في أثينا بدأ سقراط يواجه خطر تقديمه إلى المحاكمة ومحاسبته على أفكاره الجديدة التي كان يبثها بين الناس .

****

وهنا تقوم اثنان من الأثينيين ، أحدهما شاعر معروف ، بقضية إلى الشعب يتهمان فيها سقراط عدة اتهامات كلها خطيرة خطرة . منها أنه يفسد الشباب ومنها أنه لا دين له ومنها أنه يسخر بالنظم السياسية القائمة . وجيء به إلى مجلس القضاء . وجرى بينه وبين قضاته حوار غريب عجيب لم يكن في اجاباته الرجل الجاد الذي يدافع عن نفسه بل اتخذ موقف الساخر منهم ، الهازىء بأحكامهم ، المستخف بدورهم والمزدري لهم ، مما ضاعف غضب القضاة وأثار حفيظتهم.

ومع ذلك فان الحكم الذي قضى باعدامه لم يصدر كما يقول المؤرخون إلا بأغلبية ضئيلة . والواقع أن القضاة كانوا فريسة لنوعين من المشاعر : النوع الأول هو احساسهم العميق بأن فيما يقوله ويصفه كثيراً من الحق ... والنوع الثاني هو غضبهم لكرامتهم وضيقهم بأسلوبه الساخر في محاورته لهم. والمعروف في المحاكمات التي كانت تجري في عصر سقراط أن القضاة يصدرون حكمين : الحكم الأول هو إثبات ادانة المتهم . والحكم الثاني هو تقرير العقوبة التي يستحقها المتهم إذا ثبتت إدانته .

ومن التقاليد التي كانت تجري عليها المحاكم في أثينا أن قضاتها يسألون المتهم بعد إدانته عن العقوبة التي يستحقها كما يسألون المدعي عن العقوبة التي يستحقها المدعي عليه . والطريف في الأمر أن جواب سقراط عن السؤال الموجه إليه بتحديد العقوبة التي يستحقها كان ضغثاً على ضغث . أي جعل الحكم عليه بالموت أمراً مقضياً لا رجوع عنه . لقد أجاب السائل ساخراً به : أنني أرى أن تطعمني الدولة بقية حياتي لأنني أنفقت ما مضى من أيامي في تعليم الأثينيين وتهذيبهم . مما أسخط الحكام فأصدروا حكماً بالموت .

****

ومن عجيب أمر سقراط أنه في الوقت الذي كان يعبث فيه بكل العادات والتقاليد والقيم والنظم السياسية القائمة كان يقدس القوانين ويصر على احترامها . ويرى أن الخروج على هذه القوانين هو خروج على المبادىء الخلقية التي يتمسك بها ويجد فيها ضمانة لمدينته وسياجاً لسلامتها.

وبالرغم من أن سقراط قد وجد في الحكم الذي صدر باعدامه ظلماً له وامتناناً على حقه في تعليم الناس وتهذيبهم ورفضاً للحرية التي هي حق لكل أثيني ، لم يخطر في باله يوماً وهو في السجن بانتظار اليوم الذي ينفذ فيه الحكم . أن يستفيد من الفرصة التي تهيأت له للهرب من السجن والنجاة بنفسه.

فقد ذكر المؤرخون أن بعض تلاميذه هيأ له فرصة للهرب وأعد له وسائله وألح عليه فيه ، لكن سقراط أبى أن يهرب. لقد أبى الهرب اكباراً لقوانين الدولة واحتراماً لاحكامها.

والواقع أن أحداً ممن يتابع المراحل التي مر بها سقراط والمواقف التي سجلها لا يستطيع أن يوفق بين رأيه في النظام القائم والدين السائد والتقاليد المعمول بها وهو رأي رافض لها جميعاً ، ساخر بها جميعاً ، مستخف بكل الرجال والهيئات والمؤسسات التي تمثلها أو ترمز إليها ، وبين الموقف الغريب الذي اتخذه من فرصة الهرب التي تهيأت له.

وفي رأينا أنه رفض غير مفهوم بل هو مقطوع الصلة تماماً مع كل المواقف التي اتخذها في مراحل حياته كلها.

وفي رأينا أيضاً احتمال أن يكون سقراط قد أصيب بنوع من الإكتئاب بعد صدور الحكم ضده بالإعدام . وان اكتئابه هذا هو الذي دفعه إلى رفض الهرب والاقبال على تناول السم.

فهل أن سقراط قد عز عليه الاعتراف برغبته في الموت . فعزا رفضه للهرب بدعوى احترامه للقوانين واكباره لاحكام القضاء؟ لكن هذا التفسير لا يتفق مع موقفه من القضاة وسخريته بحكمهم .

ومهما يكن الأمر فإن رفضه لما عرض عليه للنجاة بنفسه حلقة ضائعة في سلسلة حياته . لكن ضياع هذه الحلقة لا يقلل من أهمية الدور الذي قام به كما لا يخفي معالم شخصيته العملاقة التي تحدث المجتمع الأثيني وأغضب كل القوى الرجعية فيه ثم تركت وراءها أثاراً كانت ولا تزال شواهد باقية في مسيرة الفكر الإنساني.